لماذا هذا الوجه العابس؟!

"ابتسمي!" قال لي المصور، ثم أتبع: أظهري أسنانك الجميلة! لماذا هذه الصعوبة في الابتسام؟
لأول مرة أنتبه أن الابتسام صعب، وأن عضلات وجهي عانت لتسترخي وتعطي إيحاء ابتسامة خفيفة.
بعد جلسة تصوير طويلة اضطررت فيها للضحك عدة مرات وللبكاء أيضا.. انتبهت أن الحزن أكثر خفة وأن دموعي سخيّة وأسهل بكثير من ابتسامة بشفتين مفتوحتين.
في ثقافتنا الشعبية كعرب نقول: "الحزن زكاة القلب"، والزكاة ضريبة وفرض يدفعها المسلم كعبادة كي لا يُصاب في ماله ، ولضمان بركة ونماء الرزق والحصول على مكان في الجنة.
الحزن زكاة القلب كأنما نحزن لندفع عن أنفسنا مصيبة قادمة كأنما الحزن تدريب للقلب على تحمل القادم الأسوأ، أو أنه كفارة عن فرح سابق أو ضريبة لتحصيل فرح قادم. هذه العبارة تلخّص عمق وتعقيد علاقتنا الجمعية مع الحزن.
كانت قصائدي طوال فترة وجودي في سوريا وفي بداية وجودي في ألمانيا حزينة ودرامية ومغرقة في التراجيديا، كان هذا الأمر مرتبطا بنظرتي للشعر ولوظيفته وللحياة المأساوية التي يعيشها الناس في وطني، إضافة لسبب جوهري مهم انتبهت له مؤخرا وهو أني مثل كثير من الناس في بلادي، أحب الحزن وآلفه وأجده رومانسيا وغنائيا يليق بالشعر وبعينيّ ووجهي، ثم انتبهت أنه صار عادة وإدمانا واحتياجا عميقا مُلّحا.
تعلمت من الحياة الجديدة هنا ومن التواصل والعمل مع الكتّاب والشعراء الألمان أن أوسّع إطلالة الشعر في مخيلتي أبعد من التراجيديا والأسئلة الكبرى وأن أنتبه للتفاصيل الصغيرة وأبتعد قليلا عن الشكوى والغنائية وأن مزحة صغيرة في القصيدة قد ترفعها عاليا.
مع ذلك كنت في كل مرة أرى فيها ميل الناس هنا إلى التخفف من الضغوط والسعي للفرح البسيط اليومي أصاب بصداع، ولم أكن أفهم تماما ما الذي يسبب لي كل هذا التوتر والقلق من كون الآخر يسعى للبهجة، كأن ثمّة إثما ومعصية في أن يكون المرء سعيدا!
(محمد الماغوط) أحد شعرائي المفضلين وابن مدينتي الأم سلمية كتب ديوان شعر رائع يحمل عنوان (الفرح ليس مهنتي) في مقابلة مباشرة لمعنى أن الحزن هو مهنة واحتراف لكل من يعيش في بلاد تحكمها ديكتاتوريات عسكرية حيث الفرح جريمة يُعاقَب عليها الإنسان.
كُتب في واحد من التقارير الأمنية الكثيرة التي تسببت في اعتقال أبي قبل أن يتمكن من اللحاق بنا إلى ألمانيا: (عندما مرت المظاهرة في شارع بيته شوهد مبتسما على الرصيف ، كان يقف شامخا ويبتسم.)
تتم كتابة هذه التقارير من قبل مخبرين متعاقدين مع أفرع الأمن يعملون لصالح جهاز الاستخبارات وتتبعها إما سلسلة من الاستجوابات أو الاعتقال أو الاختفاء القسري ، اعتمادًا على حساسية الدولة لمحتوى التقرير.
دار جزء لابأس به من التحقيق مع أبي حول معنى ابتسامته وسببها وتوقيتها. تحقيق كان يستمر ساعات طويلة، نهارا كاملا في صيف سوريا الحارق دون أن يعطوه قطرة ماء وهو مريض قلب مزمن. وكان المحقق يكرر مزحته المفضلة في نهاية كل تحقيق: (هل أنت سعيد الآن يا سيد عطفة؟ عليك أن تنتبه متى وأين تبتسم؟ ابتسم لي الآن إذا كنت تستطيع!) ويضحك. حتى الآن لا أكاد أصدق نجاته وحين نتذكر تفاصيل الحياة المجنونة التي عشناها نضحك لكن الضحك ليس فرحا بقدر ما هو رغبة في تصديق النجاة.
يسألني الجمهور الألماني كيف بإمكانك أن تضحكي وأنت تسردين هذه التفاصيل المؤلمة؟
أبتسم وربما أضحك، وأشعر بفرح جارح لأنني تمكنت أخيرا من أن أحكي للآخرين عن سبب الحزن الثقيل الذي أحمله ويحمله كل السوريين.

لينة عطفة